لعنة جلجامش

ناصر الرباط ❖

البارحة مات أولُ أحفادي، سامي، عن عمر يناهز الثانية والسبعين.

لم يكن أكبرَ أحفادي، ولا أقربَهم إليَّ أيضًا. فأنا لديَّ اثنا عشر حفيدًا وحفيدةً. أحبُّهم إلى قلبي اثنتان: نهلة السبعينية، ونادية ذاتُ الواحد والخمسين عامًا، وابنة أصغر بناتي نهيدة التي توفّاها اللّهُ منذ أكثر من عشر سنوات. أولادي الأربعة ماتوا تباعًا في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، كلُّهم لأسباب طبيعية، وبعد أعمار مديدة أنشأوا فيها عائلاتِهم ونجحوا في أعمالهم. بل إنّ ابنتي الكبرى، كريمة، أصبحتْ شاعرةً معروفةً، وتُرجمتْ دواوينُها إلى لغات عديدة. أحبّها الناس، وحصلتْ على العديد من الأوسمة، وبعد وفاتها أعلنت الدولةُ عن تسمية ساحة في المدينة باسمها، وأقامت لها فيها تمثالاً من البرونز يُشْبِهها قليلاً ولكنه يضفي عليها مسحةً من الترفّع والأبّهة ما كانت كريمة لتوافق عليها أبدًا لأنها كانت مثالاً للتواضع ومحبة كلّ الناس... بل كانت تقضي جلَّ وقتها في زيارة الناس البسطاء الذين كانوا يقرأون أشعارَها ويَدْعونها بعد قراءاتها العامّةِ إلى بيوتهم المتواضعة لكي ترى بعينيها حياتَهم التي شكّلت المادةَ الأولى لشِعرِها العذبِ والمتفائل.

الحقيقة أنّي أنشأتُ عائلتي هذه نشأةً جيدة. كنتُ الأبَ الرحيم، والمعلِّمَ الحازم، والصديقَ الصدوق، والزوجَ المحبّ لزوجتي المرحومة سعاد التي فقدتُها منذ زمن بعد خمس وثلاثين سنة من العيش الهنيّ والمشاركة في كلّ شيء... أو كلّ شيء تقريبًا: فأنا إنسان ذو تجربة طويلة وغريبة. لي أسراري وذكرياتي التي لم يكن بالإمكان أن أُشْرِكَ فيها زوجتي الحبيبة أو أولادي الأعزّاء بل لا أُشْرك فيها أحفادي المدلّلين الذين لم أكن أَرْفض لهم طلبًا.

أحببتُ سعاد فورًا تقريبًا عندما قابلتُها لأول مرة. كان يومًا خريفيّاً غائمًا وماطرًا قليلاً، من تلك الأيام التي يستخدمها كتّابُ الروايات الرومانسية خلفيّةً لقصص الحب العصيّة والحزينة. ولكنّ قصتنا لم تكن عصيّةً ولا حزينة. التقينا في معرض صديقٍ مشترك كان نجمُه قد بدأ بالصعود في سماء الفنّ. دعاني لأني كنتُ قد صَنعتُ لنفسي اسمًا كرجل أعمالٍ مثقفٍ ومهتمٍّ بالفنّ. ودعا سعاد لأنّها لا بدّ من أن تُدعى إلى مناسبات كهذه: فهي جميلة جداً، ومتحدّثةٌ لبقة، وفنّانةٌ واعدة، ولكنّها فوق ذلك سليلةُ أُسرةٍ من أعرق الأُسر في البلاد، أَنجبتْ وزراء وأصحابَ صناعاتٍ وأملاك. كان أبوها واحدًا من ألمع أبناء أُسرته، بلغ مرتبةً هامةً في الدولة، وأسّس مجمعًا علميّاً أصبح كعبةَ العلماء والأدباء. وورثتْ عن أبيها شخصيتَه الحازمة، واهتمامَه العميقَ بالعلم والأدب. وهكذا وجدْنا نفسيْنا، بعد دقائق من تعارفنا، منغمسيْن في حديثٍ متنوّعٍ وجادّ. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى كنّا نتحدّث عن الزواج بعدما اكتشفنا أنّنا نقدّس الحياةَ العائلية: هي لأنّ النموذج الذي عاشته رائعٌ ويغري بالتكرار، وأنا ـ لظروفي الخاصة، إذ لا عائلة لي ـ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى تعويضِ ذلك النقص وتكوينِ عائلةٍ تمنحني بعضَ الشعور بالانتماء.

كان وضعي صعبًا في مجتمع المدينة الراقي، المبنيِّ بأكمله على الصلات العائلية وتواريخ الأُسر الشهيرة المدوّنة والمحترمة. فلا أب معروف لديّ، ولا أمّ، ولا أُسرة. وفدتُ على المدينة وحيدًا من الأرياف البعيدة، كما كنتُ أقول لكلِّ مَنْ يسألني. اسمي العائلي لا يوحي بأصلٍ تليد، ولم أفعلْ شيئًا لتأصيله لأنّي في حقيقة الأمر عاجزٌ عن ذلك. شققتُ طريقي في عالم المال والأعمال خلال اثنيْ عشر عامًا من العمل الدؤوب لكي أكوّن لنفسي منصبًا مرموقًا وثروةً لا بأس بها وسمعةً طيبة. ولكني كنتُ أحتاج في ذلك المجتمع المحافظ إلى مرساةٍ أُلقي عندها عصا ترحالي واستمدّ منها الاستقرارَ العائلي والمركزَ الاجتماعي. وجاءت سعاد بكلّ عفويةٍ وبساطةٍ لكي تؤمّن لي ذلك بلا حساب ولا تكلّف. وجَلبتْ معها، بالإضافة إلى ذلك، الجمالَ، والذكاءَ، وخفّةَ الدم، والرغبةَ في الاكتشاف، والاستعدادَ الفطري لوهبِ نفسها لعائلتها.

❖ ـ كاتب سوري. أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).

وهكذا تزوّجنا، وخلّفنا أولَ أولادنا، كريمة، ثم سعد، وبعده فريد، وكانت نهيدة آخرَهم. عاشوا جميعُهم حيواتٍ طبيعية، وماتوا في آجالهم المسمّاة سعداءَ من دون أن يكدِّر حياتَهم ما يكدِّر حياتي. وكذلك حالُ أحفادي الاثنيْ عشر. وها هو سامي أول مَن يرحل منهم. وهذه إشارةٌ لي إلى أنّ رحيلي قد حان أيضًا، وإنْ سيكون مختلفًا.

قمتُ إلى الحمّام لأُعِدّ نفسي للذهاب إلى بيت سامي لأجل العزاء. تأكّدتُ من أنّ التجاعيد في وجهي على حالها. مشطتُ شعري الأبيض القليل. وارتديتُ واحدةً من أكثر بذلاتي أناقةً: سوداء داكنة تلائم المقامَ، مفصّلة على قدّي تمامًا، مع أنها تغطّي ببراعة بعضًا من النحافة الشديدة التي تَعْكس شيخوختي. وارتديتُ تحتها واحدًا من أكثر قمصاني البيضاء نصاعةً، وربطةَ عنقٍ سوداء مع نقط صغيرة بيضاء (فكّرتُ: كانت سعاد ستُعجب بأناقتي المفرطة التي حافظتُ عليها كلَّ هذه السنين بعد وفاتها). ثم خرجتُ بعد أن وَضعتُ على عينيَّ نظارتيَّ الطبّيتين ذاتَي الإطار الدقيق المذهَّب، واعتمرتُ قبّعةَ القشّ التي تدرأ عن جلد رأسي الحسّاس لسعةَ الشمس. ولم أنسَ عصايَ الأبنوسيةَ ذاتَ الرأس الذهبي التي تساعد ساقيَّ الضعيفتين على المشي.

خرجتُ من غرفتي. نزلتُ إلى الصالة متمهّلاً على الدرج الدائري، وأنا أستند على عصاي من جهة وعلى الدرابزين الرخامي من الجهة الأخرى. هززتُ رأسي رافضًا مساعدةَ مريم: فقد اعتدتُ النزولَ والصعودَ من دون مساعدة أحد. كان سائقي وجيه واقفًا في بهو الدخول ينتظرني. فَتَحَ لي بابَ الدار وخرجنا. نزلْنا الدرجات الرخاميةَ الأربع إلى السيارة المرسيدس السوداء، وأنا أرمش بعينيَّ الكليلتيْن في أشعّة شمس أواخر الربيع القوية نسبيًا. ساعدني وجيه على الدخول إلى المقعد الخلفي، وتأكّد أني جالسٌ بارتياح، قبل أن يُغلق البابَ وينطلق بنا إلى بيت سامي.

وصلنا بعد حوالى عشرين دقيقة. دخلتُ بيتَ سامي وسط الأحفاد وأزواجهم وأولادهم المجتمعين الذين هبّوا جميعًا لاستقبالي. سلّم عليَّ بعضُهم، وقبّل وجنتيَّ بعضُهم الآخر. توجّهتُ فورًا إلى زوجة سامي، سميّة، التي جلستْ في صدر الصالة على كرسيّ مخمليّ نبيذيّ ملفّحةً بالسواد مع شال أبيض. بدت لي أصغرَ من عادتها، وهي صغيرةُ الحجم أصلاً. كانت منكمشة، تنظر إلى الأرض نظرةً كامدة، ومشروعُ بكاءٍ يلوح في عينيها. وقفتْ ببطء لترحّب بي. بدت فعلاً عجوزًا، وتخيّلتُ نفسي في عينيها: أنا جدُّ زوجها ومازلتُ حيًّا أسعى بلا مساعدة! ترى ما الذي كان يدور في خلدها وهي تتلقّى قبلتيَّ الخفيفتيْن على وجنتيها وتهمهم بشكلٍ خافتٍ جوابًا على تعازيَّ المقتضبة؟ جلستُ على المقعد المجاور لمقعدها، وطفقتُ أجيلُ النظرَ في وجوه أحفادي وأولادهم وأتخيّل كلاً منهم صغيرًا: أولَ مرة رأيتُه، أولَ مرة حضنتُه، أولَ مرة مشى أو تكلّم. جلبتْ هذه الذكرياتُ بسمةً خفيفةً إلى شفتيَّ، عدلّتْ من نظرتي الصارمة الحزينة وحقّقتِ الأثرَ المرجوّ، إذ بان الارتياحُ على كلّ وجهٍ حولي، وابتدأوا بالخروج من صمتهم المتجهّم.

سألني حفيدي الأكبر سعيد، ابنُ سعد، الذي كان يَعتبر نفسَه رأسَ العائلة، ويراني عجوزًا وعاجزًا عن فرض إرادتي، وإنْ لم يُظهر ذلك لي قطّ: «كيف حالكَ يا جدّي؟» «بخير،» أجبتُ ببطء، وبصوتٍ حاولتُ أن أجعله واهنًا قدر الإمكان، «وإنْ ضعضعتني وفاةُ العزيز سامي بعضَ الشيء.» عاد سعيد للتأكيد، منتظرًا ربما دفاعًا أو تفسيرًا: «ولكنك ـ وللّهِ الحمد ـ تبدو كما عهدناكَ، صلبًا ومتماسكًا.» قلتُ مجاريًا موضوعَه ومهيّئًا العائلةَ لما هو آتٍ قريبًا: «آملُ ذلك يا سعيد، ولكني أشعر في هذه الأيام بضعفٍ عامٍّ قد لا يلوح لنظركَ على السطح.»

تدخّلتْ نهلة، حفيدتي الرقيقة وابنةُ المرحومة كريمة: «عافاكَ اللهُ يا جدّي، أرجو أن يكون ذلك عارضًا بسيطًا وأن تعود فورًا إلى عهدك.» «أرجو ذلك يا جميلتي،» قلتُ لها من دون أيّ أثرٍ للسخرية في صوتي وأنا أخاطب ابنةَ السبعين ربيعًا بـ «الجميلة»: فهي في عيني لم تزل جميلةً رغم سنّها، ورغم الشيْب الذي وخط شعرَها، والتجاعيدِ التي تملأ خدّيها ورقبتَها. «من الواضح أنكَ لم تفقد قدرتكَ على التمييز،» أضافت نهلة وهي تَغْمزني بخبثٍ وتبتسم ابتسامةً رائقة. ولكنّ ابنَ عمها سعيد لم يمهلها لكي تكملَ لعبتَها العابثةَ معي، بل تدخّل ليسألني بصوتٍ جدّي: «هل ستأتي إلى الجنازة والمقبرة يا جدّي؟» مثيرًا نهنهاتِ بعض الحضور بتذكيرهم أننا إزاء جنازة

وموت ودفن. «اعفني من ذلك يا بنيّ، فأنا كما ترى ضعيفٌ لا أقدر على السير طويلاً والوقوف في الشمس،» أجبتُ. «طبعًا، طبعًا يا جدّي، فنحن لا نريد أن نرهقكَ، وكفاكَ جهدًا أنك قدمتَ هنا اليوم،» أجابني بما يشبه التشفّي، أو هكذا خُيّل إلي. شكرتُه وقلت إنّني سأبقى هنا مع مَنْ يبقى أنتظر عودتهم من الجنازة. وتلفّتُّ حولي. وطبعًا كانت نهلة أولَ مَن قال: «سأبقى أنا مع جدّي، ويمكنكم كلّكم الذهاب.» فقاموا واحدًا بعد الآخر. ومدّ سعيد يده إلى سميّة يشجّعها على النهوض. وانصرفوا.

بقيتُ وحدي مع نهلة، وقضيتُ بعض الوقت أتأمّلها بحنان، ثم قلتُ لها: «كلّما تطلّعتُ إلى وجهكِ تذكّرتُ سعاد الحبيبة.» «شكرًا جدّو،» أجابتني، «هذا أجملُ إطراءٍ يمكن أن أحصل عليه.» ذكيةٌ هي هذه البنت، ولبقة، فكّرتُ. عليّ أن أضع في ظَرفها وظَرفِ نادية، حفيدتي الصغيرة، ما يعبّر عن حبي لهما من دون أن أجرح مشاعرَ أحفادي الآخرين. وسهوتُ قليلاً عمّا حولي وأنا أفكّر بما عليّ تحضيرُه الليلة: فقائمةُ الخطواتِ الواجب تنفيذُها بدقّةٍ طويلةٌ حقّاً. ولكنّي فعلتُها مراتٍ عدةً ولم أرتكب أيَّ خطإٍ مهمّ في أيٍّ منها.

انتبهتُ إلى نهلة تمسك بيدي بعد أن اقتربتْ من كرسيّ بلا ضجيج. أَخذتْ يدي المعروقةَ بين يديها بحنان وهي تنظر إلى أعمق أعماق عينيّ وتبتسم من دون أن تقول شيئًا. وخُيّل إليّ أنها تعرف سرّي، أو أنها على وشك أن تستخلص بعضَه مني. تمالكتُ نفسي وقلتُ لها: «كم أتمنى أنّ الظرف غيرُ هذا الظرف لنذهبَ إلى مقهى ونستمتعَ بهذا الطقس.» فجاوبتني: «وما يمنعنا؟ كلانا تجاوز السنَّ التي تستلزم اتّباعَ المواضعات الاجتماعية السخيفة. هيّا بنا. سآخذكَ بسيارتي إلى مقهى رائع!» ندمتُ فورًا على ملاحظتي وأجبتُ: «اعفيني من ذلك، نهلة، أرجوكِ! ماذا سيقول أبناءُ عمومتكِ عندما يعودون من الدفن ويكتشفون أننا غادرنا إلى مقهى؟! يجب أن أبقى؛ فأنا مازلتُ رأسَ هذه العائلة، وإنْ ظنّ سعيد أني كبرتُ على هذا الدور.» «وما الذي يعرفه سعيد يا جدّو؟» زقزقتْ نهلة بغضبٍ طفوليّ، «مازلتَ رأسَ هذه العائلة السامي، وستبقى كذلك ما شاء الله.» «لستُ أدري يا جميلتي،» أجبتُها، «لديّ إحساسٌ قويٌّ بأنّ ساعتي قد حانت.» «لا تقل ذلك يا جدّي،» زعقتْ، قبل أن تقول بصوتٍ أكثر دفئًا: «أنتَ ما زلتَ قويّاً كالسنديانة العتيقة في حديقة بيتك، ووارفَ الظلال علينا جميعًا مثلها أيضًا.» «شكرًا يا حبيبتي، ولكني أُنْبئكِ فقط بما أشعر به. فأنا فعلاً مرهق، وأشعر وكأنّ طاقتي تتسرّب من جسمي.»

سكتتْ نهلة، وإنْ راحت تتطلّع إليّ بإصرار، وعلامةُ استفهامٍ كبيرةٌ على وجهها، مبقيةً يدي في يدها. قلتُ لنفسي إنّ إحساس هذه البنت مذهل. يجب عليّ أن أقاوم مشاعري وألاّ أُفصحَ لها بشيءٍ سأندم عليه بالتأكيد. ابتسمتُ لها ابتسامةً حاولتُ أن أجعلها رقيقة. استجابت بابتسامةٍ مثلها ولم تتكلّم، منتظرةً مني أن أبدأ بالبوح. لكني سكتُّ، واستكانت يدي في يدها تستمدّ منها الدفءَ والوصال. وبقينا كذلك لبعض الوقت قبل أن تنتبه إلى أنّ المعزّين سيعودون قريبًا وأنّ عليها أن تساعد في إعداد الطعام. «عذرًا يا جدّي، سأذهب إلى المطبخ لأتأكّد من أنّ كل شيء على ما يرام.» شكرتُها على لحظات الصفاء التي منحتْني إيّاها، فأجابتني بغمزة، وغادرت الغرفة. بقيتُ وحيدًا أتأمّل حالي وما أنا على وشك الإقدام عليه.

رجع الجمعُ من الجنازة. حيّوني ثم توزّعوا على المقاعد حولي. جلستْ سميّة إلى جانبي ثانيةً، معيدةً إلى الأذهان أني رأسُ العائلة بعد أن تولّى ذلك سعيد خلال مراسم الدفن. واسيتُها ببضع كلمات، وسألتُها عمّا ستفعله بعد غياب سامي، خاصةً وأنّ ولديها يقيمان في الخارج. قالت إنها لا تدري بعد، وإنْ كانت على الأرجح ستقضي جلّ وقتها في الترحال بين الولدين لرؤية أحفادها الصغار الذين أصبحوا الآن أغلى ما لديْها في الحياة. عادت نهلة ودعت الجميعَ إلى غرفة الطعام، فاغتنمتُها فرصةً لكي أعلن عزمي على العودة إلى بيتي بسبب تعبي الشديد ولأنّي أتبع حميةً خاصةً. ودّعوني، بعضُهم بحرارة. وكانت آخرَهم نهلة التي ضمّتني إلى صدرها ضمّةً شديدةً، وقبّلتني على وجنتيّ بلهفة، ثم همستْ في أذني: «اعتنِ بنفسك يا جدّي. نحن في أمسّ الحاجة إلى وجودكَ وحكمتكَ ومحبتكَ بيننا.» ثم أضافت: «سآتي لزيارتكَ غدًا عندما تسمح أشغالي بذلك.» أجبتُ بلهفة، وبشيءٍ من الحزن الذي جهدتُ في ألاّ أدعه يَظْهر في تهدّج صوتي أو نظرة عيني: «أنا بانتظارك.» وأفلتُّ من ضمّتها وأنا غايةٌ في الأسى لإدراكي أنّ هذه هي آخرُ مرة أراها أو أضمّها، أو أرى غيرَها من أفراد أسرتي الممتدة على أربعة أجيال.

رجعتُ إلى بيتي. كانت مريم قد حَضّرتْ طعامي: شوربة مرق الدجاج، سلطة خسّ مع نقطتين من زيت الزيتون ونقطة خلّ أسود، وقطعة خبز من الدقيق الكامل، مع كوب من الشاي الأخضر الذي روّجت أنه يطيل العمرَ ويحافظ على التيقّظ. أكلتُ بنهم، ثم طلبتُ إليها ألاّ تسمحَ لأحد بإزعاجي لأني في حاجة إلى الراحة في جناحي. دخلتُ وأقفلتُ الباب خلفي بالمفتاح. جلستُ إلى طاولتي وأخذتُ أدوّن الخطوات التي يتعيّن أن أقوم بها قبل رحيلي وأضيف بعضَ التغييرات إلى القائمة التي حضّرتُها منذ سنوات واحتفظتُ بها على كومبيوتري الشخصي باللغة الأكّادية القديمة المكتوبة بالعربية المصوّتة زيادةً في الحرص على عدم تمكين أيٍّ من أفراد أسرتي من قراءتها. قضيتُ ساعة ونيّفًا في إعادة ترتيب اللائحة. وكنتُ كلَّ بضع دقائق أفتح صفحةَ صور سعاد التي جمعتُها على الكومبيوتر وأتأمّلها بوجدٍ في مختلف مراحلها العمرية، ثم أعود إلى لائحتي. أنهيتُ ترتيب اللائحة وطبعتُها. ثم قمتُ إلى لوحة «طوفان نوح» المعلّقة على الحائط المقابل، ورفعتُها لأكشفَ تحتها أزرارَ الباب السرّي. أدخلتُ الشيفرة، فانفتح البابُ المخفيُّ خلف مكتبتي، وولجتُ إلى غرفتي السرّية التي لا يَعْلم أحد من أفراد عائلتي عنها شيئًا. أغلقتُ الباب خلفي وبدأتُ بخطواتي التحضيرية واحدةً تلو الأخرى ـ فلا وقتَ لديّ سوى الليلة قبل أن تأتي نهلة لزيارتي غدًا.

❖ ❖ ❖

ربما آن الأوان لكي أُخبركم عن «رحيلي» هذا. رجاءً ألاّ تتوقفوا عن القراءة بعد أن أُفشي إليكم سرّي الذي أدركُ يقينًا أنه عصيّ على التصديق. فأنا، واللهُ على ما أقول شهيد، معمِّرٌ من نوعٍ خاصّ، عشتُ حتى اليوم أكثرَ من سبعمائة سنة. ولدتُ سنة ١٢٦٥ بالتقويم الغريغوري، المعادل لسنة ٦٦٣ هجرية، في مدينة الموصل، يومَ كان المغولُ يكتسحون العراقَ ويعيثون فيه فسادًا تقريبًا كلَّ سنة ثم يعودون القهقرى إلى إيران الإلخانية. تنقّلتُ عبر السنين في البلاد، أُنشئ أُسَرًا، وأعيش معها العمرَ الافتراضي لمعمِّرٍ من ذلك العصر، ثم أختفي لفترةٍ تطول أو تقصر، قبل أن أستقرَّ في مدينة أخرى أبدأ فيها حياةً جديدةً، ثم أختفي ثانيةً عندما يحين أجلي الافتراضي، تاركًا لأسرتي بعضَ ثروتي وذكرياتي. وأنا، واللهِ، مللتُ من هذه اللعنة، لعنةِ العيش الأبدي والتنقلِ بين مدن مختلفة وأُسرٍ مختلفة ولغاتٍ مختلفة، خاصةً وأني هذه المرة قد أحببتُ أفرادَ أسرتي الحالية وأكره أن أتركهم. ولكنْ لا يمكنني البقاءُ بعد أن بلغتُ في نظرهم من العمر أكثر من مئة سنة ولاحظوا أني بقيتُ حيّاً بعد موت زوجتي وأولادي الأربعة وأول أحفادي. أعرف أنّ هذا قدري، ولكني أعرف أيضًا أنّ قدر الإنسان يَخْضع لإرادته بطريقةٍ أو بأخرى. وأنا على وشك أخذِ قدري بيدي وتحدّي لعنتي نهائيّاً، كما فعل كثيرون قبلي من الخالدين، ولو أني متخوِّفٌ من قراري ومتردِّدٌ في تنفيذه.

عرفتْ أمي الخالدة أني من الخالدين يومَ وُلدتُ؛ فقد جئتُ ومعي علامتُهم: شامةٌ كبيرةٌ بين عظمَي الكتف على شكل دائرة. لم تكن أمي تتوقّع أن تنجب خالدًا، ولكنّها رضختْ لقدرها وابتدأتْ بتهيئتي لقدري منذ نعومة أظفاري. أخبرتني بأني من الخالدين يومَ بلغتُ الثامنة عشرة، كما هي القاعدة. أخذتني إلى غرفتها وأغلقتِ البابَ، ثم أدخلتني من بابٍ لم أعرف بوجوده قطّ إلى غرفتها السرّية حيث كانت طوال سنين تحضّر لشيخوختها المفترضة ولرحيلها بعد ذلك. قالت: «لن تصدّق ما سأقوله الآن يا بنيّ يا جمال الدين ـ وكان هذا اسمي الأول ـ ولكنه صحيح وحقيقي. أنتَ من الخالدين، مثلي تمامًا: أيْ أنكَ لن تموت كما يموت الناس، بل ستحيا إلى أجل مديد، وربما إلى الأبد. ولهذا الأمر مزاياه ومسؤولياتُه ومسارُه ومنغّصاتُه. وأنا مكلَّفةٌ بتعليمك الأمريْن الأوّليْن، وتهيئتك لتقبّل الآخريْن، اعتبارًا من اليوم.» ذهلتُ لِما سمعته، وبقيتُ ساكتًا لوهلة طويلة. لم أصدّقْ أمي في بادئ الأمر، ورفضتُ الاستماعَ إلى بقية ما كانت ستقوله، وقمتُ بسرعة أريد الخروجَ من تلك الغرفة الغريبة التي انتشرتْ في أرجائها علبٌ خشبيةٌ صغيرةٌ ومزخرفةٌ مصفوفةٌ بعناية مع قصاصات ورق صغيرة عليها كلامٌ بلغةٍ لم أكن أعرفها بعد. ولكنّ أمي، بالصبر وشدّةِ المراس، أجبرتْني على البقاء أمامها والتفكّر في ما كانت تقوله.

أخبرتني بكلّ التفاصيل عن الخالدين، وقدّمتني فيما بعد إلى غيرها من الخالدين الذين جاؤوا خصّيصًا للقائي حين بلغتُ رشدي. وها أنا ذا للمرة الأولى في تاريخي، وربما في تاريخ السلالة الخالدة كلّها، أضع على الورق بعضًا من قصة هذه السلالة المنحوسة.

لن تصدّقوا ما سأخبركم به، خاصةً وأنّ ما سأقوله معروف لديكم على أنه أسطورة من نسج الخيال، تناقلها الأقدمون، ولها خاتمةٌ مختلفةٌ عمّا سأنبئكم به. سلالة الخالدين التي أنتمي إليها هي سلالةُ جلجامش، ملكِ أوروك الشهير، وبطلِ الملحمة السومرية الذائعة الصيت؛ جلجامش الذي كانت والدتُه، ريمات نينسون، إلهةً خالدةً، ووالدُه لوغالباندا بشرًا فانيًا؛ فجلجامش، من ثم، كان نصفَ إله ونصفَ بشر كما تقول الأسطورة. فَتَّشَ عن الخلود عبر سلسلة من المغامرات الطويلة، ولم يحصلْ عليه بعدما فشل في الاختبارات التي أعطاه إيّاها الحكيمُ الخالد أوتونبشتم وزوجتُه. وتقف الأسطورةُ عند عودة جلجامش صِفْرَ اليدين، وإدراكِهِ أنّ الخلود مستحيل على البشر الفانين. فيموت ويدفنه أبناءُ مدينته في صرحٍ تحت أسوار أوروك العظيمة التي بناها بمحاذاة مجرى نهر الفرات العظيم لكي يبقى دائمًا حاميًا لمدينته.

لكنّ جلجامش، الملكَ التاريخي، لم يمت. جلجامش، الذي ذهب بعيدًا في تفتيشه عن الخلود بعد موت مرافقه إنكيدو، مرّ بمغامرات تختلف عمّا تَسْرده الأسطورةُ الرقمية، وعاد منها وقد حصل على الخلود الذي استحقّه والتصقتْ به لعنتُه إلى أبد الآبدين. لا أعرف تمامًا كيف حصل جلجامش على الخلود؛ فهو لم يدلِ بالقصة كاملةً لأيّ من أبناء سلالته الذين قابلوه وحفظوا لنا بعضًا من سيرته. ما أعرفه هو أنه حصل عليه بشروط صعبة لم يكن بإمكانه إدراكُ عواقبها في البداية، إذ سيقف فيه العمرُ عند السادسة والثلاثين، وهو العمر الذي كانه عندما نال الخلوَد. وهو سيُنجب سلالةً من الخالدين الذين سيتوزّعون عبر العصور، واحدًا في كلّ جيل، من دون أيّ ترتيبٍ واضحٍ أو أية إمكانية للتنبّؤ بمَنْ سيَخْلد منهم ومَنْ سيَفْنى. علامتُهم الوحيدة هي الشامةُ الدائريةُ بين عظميْ كتفهم، التي يتعيّن عليهم إخفاءُ دلالتها عمّن يعرفونه من الفانين. سيَكْبرون، كلٌّ في عصره، إلى أن يبلغوا السادسة والثلاثين، العمرَ الذي يتوقّفون عنده لكي يحيوا شبابًا بقيةَ الدهر إن استطاعوا. ومَنْ ذا الذي يستطيع أن يعيش بين الناس الفانين شاباً أبدَ الدهر، لا يموت من مرض أو شيخوخة ولكنّه يمكن أن يقضي قتلاً أوانتحارًا لئلاّ يُعرف أنّه خالد؟! وقد جاء إلى هذا العالم تسعةٌ وأربعون خالدًا وخالدةً منذ أن حصل جلجامش على خلوده، أنا رقم واحد وعشرين فيهم. ولم يبق منا اليوم في العالم سوى خمسة وثلاثين خالدًا: قضى خمسةٌ منا في حوادث قتل وقتال، وقضى الباقون انتحارًا ليأسهم من طول الحياة وضرورةِ التنكّر والتغييرِ المستمرّيْن ولاجدوى الخلود عندما تبقى أنتَ كما أنتَ في حين تتغيّر الدنيا مِنْ حولكَ وتَلْزمُكَ محاولةُ مجاراتها دومًا.

هذا ما حاولتُه على مدى القرون السبعة الماضية: غيّرتُ اسمي، وهويتي، ومكانَ إقامتي، ولغتي، وخلفيتي المفترضة، وأُسرتي التي كنتُ أكوّنُها وأهجرها سبعَ مرّات. وها أنا ذا على وشك الرحيل للمرة الثامنة. وعشتُ لكي أروي القصة اليوم. عشتُ سعيداً في الظاهر لأننا، نحن الخالدين، وبسببٍ من تراكم الخبرات والثروة في سلالتنا، نعيش مؤمَّنين مادياً. ولكني كنتُ، ولم أزل، بائسًا بشكلٍ لا يطاق: فأنا حزين دومًا لأني أفتقد عائلاتي المتعددة التي كُتب عليّ أن أُنشئَها وأهجرَها مرةً كلّ جيل. أعيش مع كمٍّ هائلٍ من الذكريات التي تتراكم باستمرار وتضغط على وجداني وتجعلني أعيش حيواتٍ متعددةً في إهابِ جسدٍ واحد. فما الإنسانُ في نهاية الأمر إلاّ كتلةٌ من الذكريات، وأنا أعيش حتى اليوم مع سبعةِ أمثالِ ما يعيشه الإنسانُ العاديُّ من ذكريات شخصية: عليّ دومًا فصلُها والتأكّدُ من صحّة تسلسلها الزمني لكي أعيش يومي من دون خلط مع حوادث سابقة عشتُها ولا يدري عنها شيئًا مَنْ يعيش معي في تلك اللحظة. أحببتُ سبعَ نسوة وتزوجتهنّ، وعشتُ مع كلّ منهن عمرًا كاملاً. أنجبتُ سبعة وعشرين ولدًا على مدى القرون السبعة الماضية، وأكثرَ من مئة حفيد، ربّيتُهم وراقبتُهم يَكْبرون ويؤسّسون عوائلَ لأنفسهم، وتركتُ غالبيتَهم أحياءً، واختفيتُ من دون أيّ شرح. تركتُهم يَنْسجون قصةً مقْنعة لاختفائي كلّ مرة، ولم أحاول قطّ ـ حسبما لُقّنتُ ـ أن أنظر إلى الوراء لأرى كيف برّروا رحيلي لأنفسهم ولمجتمعهم.

أنا أيضًا إنسانٌ شكّاكٌ بطبعي. ولا أخفيكم أنّ الخلود والشكّ مفهومان متناقضان تناقضًا فظيعًا. فأنا إلى اليوم لا أعرف مغزى الخلود أو معنى التستّر والتخفّي المكتوبيْن على سلالتنا. وأنا، في الحقيقة، لا أظنّ أني أقربُ إلى الله من الناس الفانين بسببٍ من خلودي: بل ربما أتاح لي الخلودُ فرصةً للتفكّر في معنى الحياة نفسِها، وفي تجربتها سبعَ مرات مختلفة، لم تنجحْ أيٌّ منها في إقناعي بمعنى نبيلٍ للخلود أو بجدواه. صحيح أني حافظتُ على السرّ، ولكني لم أفلحْ يومًا في فهم دلالته وفي القبول بأني وأمثالي مختارون ومخصوصون بهذه الأعطية. فهي في نظري عبءٌ ثقيلٌ لا يمكنني تحمّلُه بعد هذه القرون السبعة من الهيام على وجه الأرض ومن الترحال بين الناس؛ عبءٌ أظنّ أني بلغتُ منتهاه وأني سأضع حدّاً له قريبًا كما فعلت ابنتي الأولى «أسماء» التي قَضَتِ انتحارًا منذ أكثر من مئة سنة بعد أن عاشت خمسةَ أجيال وخلّفتِ ابنةً واحدةً من الخالدين، عائشة، التي غيّرتِ اسمَها ومظهرَها عشراتِ المرات منذ بلوغها، وترفض أن تراني منذ انتحار أمها لاعتقادها بأنّي المسؤولُ عن ذلك الانتحار.

ولكني الآن بصدد إنهاء علاقتي بأسرتي الحالية وترتيب «رحيلي» بطريقةٍ تَسمح لأحفادي بتأويله بطريقة مقْنعة ومقبولة. لن أترك لهم أيّ رسالة تشرح اختفائي، بل عليهم نسجُ قصةٍ ترضي محيطَهم. سآخذ هذه الأوراقَ معي لكي أخبّئها مع أدوات التنكّر ورسائل الماضي ومقتنياته التي تُثْبت طولَ حياتي، أو حيواتي. سأضعها جميعَها في حجرة صغيرة أعددتُها تحت القبر الفارغ في مدفن أقمتُه منذ قرنين لنفسي في مدينة حيدر أباد في الهند. وكنتُ قد بلغتُ في ذلك الوقت مرتبةَ شيخٍ صوفيّ له أتباعٌ ومريدون باسم جلال الدين الاستراباذي، مدّعيًا أنّ أصلي من فارس؛ وأنّ نسبي يمتدّ إلى الصحابي الجليل سعد بن معاذ. وبنيتُ لنفسي زاويةً، ساهم فيها خيرةُ أبناء حيدر أباد، بمن فيهم بعضٌ من أسرة النظام.

❖ ❖ ❖

أخرجتُ العلب الخشبية المصدّفة التي كنتُ قد أعددتُها بأسماء أحفادي الاثنيْ عشر وأسماء العاملين في بيتي وفي مكتبي، ورتّبتُها على صينية فضية لأحملها إلى غرفتي وأضعها على طاولة الليل قرب سريري لكي يكتشفها أحفادي هناك. نزعتُ عن علبة سامي بطاقةَ اسمه ووضعتُ بدلاً منها بطاقةً بأسماء سميّة والولدين. فتحتُ علبتيْ نهلة ونادية ووضعتُ في الأولى، بالإضافة إلى مستندات التمليك ومجموعة الأسهم المخصّصة لها، عقدًا من الياقوت حصلتُ عليه من تجارة في الهند قبل قرنين. أما الثانية فأضفتُ إليها عقدًا من العقيق من اليمن. وأضفتُ في رسالة كلٍّ منهما ملاحظةً عن رغبتي في أن تتذكّراني وجدّتَهما سعاد عندما ترتديان هذيْن العقديْن. كانت حقيبتي الشخصية التي أحملها على ظهري معدّةً بكلّ ما خفّ وزنُه وغلا ثمنُه، بالإضافة إلى المستندات اللازمة لانتحال شخصيتي الجديدة التي قررتُ أن تكون في البرتغال... هذا إذا بقيتُ داخل هذه اللعبة بعد انتهاء «فترة النقاهة» كما نسمّيها عندما يقوم الخالدُ بزيارة غيره من الخالدين في سلسلة من السفرات مخطّطةٍ أصلاً لمساعدته على الانتقال من حالة إلى حالة وعلى سلوان الأُسرة التي تركها. وكنتُ قد قرّرتُ أن أبدأ ترحالي بزيارة أمي التي كانت سيدةَ أعمالٍ ناجحةً في ملبورن بأستراليا، متزوجة ولها ثلاثة أولاد، عاديون طبعًا، لأنّها أعطت للدنيا خالدَها الوحيدَ: أنا.

أشعلتُ المصابيحَ القوية حول المرآة أمامي وبدأتُ بإزالة طبقات الماكياج التي دأبتُ على وضعها منذ سنين عديدة لتشكيل شيخوختي. تطلّب مني ذلك شيئًا من الوقت؛ فبعضُ هذه الطبقات أصبح بمثابة جلدٍ ثانٍ لي بعد أن ظلّ على وجهي شهورًا. وعندما فرغتُ، أَطلّ عليَّ وجهي المعهودُ الذي صاحبني حتى اليوم سبعمائة وثلاثًا وأربعين سنة. نظّفتُ وجهي من المساحيق وآثار الجلد البلاستيكي ودهنتُه ببعض الكريمات العشبية المطرّية. أزلتُ عن رأسي الصلعةَ البلاستيكية، فظهر تحتها شعري الأسودُ المنسدل. وقفتُ باستقامة لأول مرة

من سنين مستغنيًا عن الانحناء الاصطناعي الذي اعتدتُه. وغيّرتُ ملابسي إلى ملابس ملائمة لشابٍّ ثريّ في الثلاثينات. أخرجتُ صينية العلب إلى غرفة النوم. وأخرجتُ حقيبةَ ظهري وحقيبةَ الكومبيوتر ووضعتُهما على السرير. أخرجتُ من الخزانة الشنطةَ الجلديةَ الفاخرة المهيّأة منذ زمن ببعض من ثيابي وحاجيّاتي الشخصية. تطلّعتُ إلى الساعة فوجدتُها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. بقي أمامي ساعتان قبل موعد الطائرة المغادرة إلى دبي، ومنها إلى ملبورن.

اختلستُ نظرةً إلى صورة سعاد الموضوعة قرب سريري. رفعتُها بيديَّ وقبّلتُها طويلاً ثم أعدتُها إلى مكانها، لأنه لا يُسمح لنا بأن نأخذ معنا ما يذكّرنا بالحياة التي رحلنا عنها. عدتُ إلى غرفتي السرّية وتأكّدتُ من أني قد أزلتُ كلّ آثاري منها ولم يبق سوى الطاولة والكرسي الجلدي والخزانة الخشبية بصندوقها الحديدي السرّي الذي تركتُه عامدًا مفتوحًا وخاليًا. أطفأتُ النور، فأنا لا أحبّ تبذيرَ مصادر الطاقة. أغلقتُ الباب، والتفتُّ إلى جهاز التحكّم خلف لوحة «طوفان نوح،» فانتزعتُه من مكانه بعد أن قطعتُ شرائطَ تحويله الكهربائية كلّها. لففتُها ووضعتُها في علبةٍ بلاستيكية كنتُ قد أعددتُها سابقًا على مقاس فتحة الجهاز في الحائط ودفعتُها إلى الداخل، ثم أخرجتُ علبةَ الدهان الصغيرة ودهنتُ سطحَ العلبة بحيث بدت وكأنها جزءٌ من الجدار نفسه. وضعتُ جهازَ التحكّم في كيسٍ بلاستيكي سآخذه معي. نكشتُ الفراش كما لو أني غادرتُه للتوّ. وضعتُ بيجامتي على طرف السرير، ومعها روبي الصوفي الكشمير، ورتّبتُ مشّايتي الشاموا أمام السرير. علّقتُ حقيبةَ الكومبيوتر على كتفي اليمنى، وحقيبةَ المستندات على كتفي اليسرى، وحملتُ حقيبةَ ثيابي باليد اليمنى. تأكّدتُ من أنّ بطاقة السفر والجواز الجديد في جيبي. أطفأتُ نور الغرفة الرئيس وتركتُ نورَ الليل الخافت. أدرتُ مقبض الباب بهدوء وخرجت. أغلقتُ الباب خلفي. نزلتُ على الدرج بخفّةٍ لم أعهدْها منذ أكثر من أربعين سنة عندما بلغتُ الستين من عمري الافتراضي. فتحتُ بابَ البيت بالمفتاح الالكتروني، وأغلقتُه خلفي بهدوء. خرجتُ إلى الترّاس، فلفحني هواءُ الليل المنعش. فتحتُ بابَ الحديقة بالمفتاح الاكتروني أيضًا، وخرجتُ إلى الشارع المضاء بنور خفيف. مشيتُ بضع خطوات، والتفتُّ إلى الوراء لألقي نظرةً أخيرةً على البيت الذي شهد سعادتي مع سعاد. لم أر منه الكثير لأنه كان مختفيًا خلف الأشجار الباسقة التي زرعتْها سعاد منذ حوالى نصف قرن، ولكني لمحتُ هيكله الجميل. وكانت هذه آخرَ صورة انطبعتْ في ذهني عن الحياة التي كنتُ أغادرها آسفًا.

مشيتُ إلى آخر الشارع واستدرتُ يمينًا. أخرجتُ هاتفي النقّال من جيبي واتصلتُ بشركة تاكسي تعمل بعيدًا عن حيّنا وطلبتُ تاكسيّاً إلى المطار. أعطيتُ المسؤول عنوانًا يبعد عن بيتي حوالى عشرين دقيقةً سيرًا على الأقدام، وطلبتُ إليه إرسالَ سيارة بعد عشرين دقيقة. وصلتُ إلى العنوان الذي أعطيتُه قبل وصول التاكسي بثلاث دقائق. توقّف التاكسي قرب الرصيف ونزل السائقُ ليفتح لي الصندوق الخلفي. وضعتُ حقيبةَ ثيابي هناك واحتفظتُ بالحقيبتين الباقيتين. دخلتُ التاكسي وأنا أرسم ابتسامةً على شفتيّ، وإنْ كان قلبي يضجّ بالأسى. قلتُ للسائق: «إلى المطار من فضلك. إلى صالة السفر الثانية.»

لشبونة والقاهرة